كيف تكون ناجحًا
في طلب العلم

كيف تكون ناجحًا في طلب العلم[1]

طلب العلم:

لقد حث الإسلام على التعلم وطلب العلم وجعله فريضة على كل مسلم؛ قال رسول الله ﷺ: «**طلب العلم فريضة على كل مسلم**»[2]. وقد بيَّن الله عزَّ وجلَّ أن من نعمه العظيمة على الإنسان ومن كمال كرمه تعالى عليه أنه علَّمه ما لم يعلم، فشرفه وكرمه بالعلم، ونقله من ظلمة الجهل إلى نور العلم، ونبَّه تعالى على فضل علم القراءة والكتابة لما فيه من المنافع العظيمة التي لا يحيط بها إلا هو؛ قال الله تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥﴾[3].

فالعلم نور وضياء، والجهل ظلام وعتمة، والعلم غذاء الروح كما أن الطعام غذاء البدن. ولا يحتاج العلم لتعريفه؛ لأنه أبين من أن يبين، وأوضح من أن يوضح. وطلب العلم يبدأ منذ الصغر ويستمر حتى الممات، وخلال ذلك فإن

---

(١) راجع: إحياء علوم الدين للغزالي ٧/١، ٤٨ وما بعدها، وفتح الباري للعسقلاني ٥٩/١، ١٦٦، ٢٢٩، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢٧/٤، وفيض القدير للمناوي ٢٦٣/٤.

(٢) صحيح سنن ابن ماجه، رقم: ١٨٣.

(٣) سورة العلق، الآيات: ١-٥.

المتعلم مأمور بأن يدعو الله ليزيده علمًا؛ لأن العلم لا ينتهي، ومع أن رسول الله ﷺ قد بلغ من العلم ما لا يمكن لغيره من البشر أن يصل إليه فقد أمره الله عزَّ وجلَّ بقوله: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[1]، وليس في القرآن كله أمر بالدعاء بطلب الازدياد من شيء إلا من العلم، وهذا واضح الدلالة في فضل العلم؛ والمراد بالعلم العلم الشرعي الذي يتلقاه المتعلم على أيدي الشيوخ والعلماء والمساجد والمعاهد والكليات الشرعية، الذي يفيد معرفة ما يجب على المكلف من أمر دينه في عباداته ومعاملاته، والعلم بالله وصفاته، وما يجب له من القيام بأمره، وتنزيهه عن النقائص، ومدار ذلك على التوحيد والتفسير والحديث والفقه وعلوم القرآن[2].

وليس هناك أدنى شك في أن هذا العلم من أشرف العلوم التي يتعلمها الإنسان في حياته ومن أعظمها على الإطلاق، ثم بعد ذلك يأتي العلم الدنيوي الذي يتلقاه الإنسان في المدارس بدءًا من سنوات عمره الأولى مرورًا بمرحلة الابتدائية ثم المتوسطة ثم الثانوية ثم الجامعة ثم الدراسات العليا التي يحصل فيها المتعلم على شهادة (الماجستير) ثم (الدكتوراه).

ولا شك أن حرص المسلم على طلب العلم الشرعي والمواظبة على ذلك تدل على أن الله عزَّ وجلَّ يريد به خيرًا لقول النبي ﷺ: «**من يرد الله به خيرًا يفقهه**

---

(١) سورة طه، الآية: ١١٤.

(٢) في عصرنا الحاضر يتوفر للرجل مصادر متعددة لتلقي العلوم الشرعية وذلك عن طريق حضور الدروس العلمية للعلماء في المساجد، أو سماع الأشرطة الإسلامية، أو إذاعات القرآن الكريم، أو قراءة كتب الفتاوى وغيرها من الكتب العلمية؛ فسبل طلب العلم متوفرة بكثرة للرجل الذي يرغب في أن يكون فقيهًا في دينه بل ربما عن طريق هذه السبل يصبح الرجل طالب علم مميز أو عالم.

في الدِّين»[١]، فهذا بيان ظاهر لفضل العلماء على سائر الناس، ولفضل التفقه في الدين على سائر العلوم. ويفهم من الحديث أن من لم يتفقه في الدين فقد حُرم الخير.

ومهما تعلم الإنسان ووصل إلى أعلى الدرجات في العلم يظل هناك من يفوقه في العلم مصداقًا لقول الله تعالى: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾[٢]، بل لم يؤتى من العلم إلا القليل؛ قال تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[٣].

فضل العلم:

إن الخاصية التي يتميز بها الإنسان عن سائر الحيوانات هي العلم؛ فالإنسان إنسان بما يحمله من علم فيكون شريفًا لأجله، وليس ذلك بقوة شخصه أو عظمته أو شجاعته أو كثرة أكله أو جماعه؛ فالجمل أقوى منه، والفيل أعظم منه، والأسد أشجع منه، والثور أوسع بطنًا منه، وأصغر العصافير أقوى على السِّفاد[٤] منه، بل لم يُخلق الإنسان إلا للعلم.

وإن فضل العلم الشرعي عظيم جدًا وأكبر من أن يُبيَن بكلمات، ويكفي أن الله تعالى يرفع المؤمن على غيره درجات بحسب ما تعلمه من العلم؛ قال الله

(١) أخرجه البخاري في كتاب العلم، باب من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٧٦.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٨٥.

(٤) السِّفاد: نزو الذكر على الأنثى.

تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾[١]؛ قيل في تفسير هذه الآية: يرفع الله المؤمن العالم على المؤمن غير العالم. ورفعة الدرجات تدل على الفضل، إذ المراد به كثرة الثواب، وبها ترتفع الدرجات، ورفعتها تشمل المعنوية في الدنيا بعلو المنـــزلة وحسن الصيت، والحسية في الآخرة بعلو المنـــزلة في الجنة.

وقال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾[٢]. فانظر كيف بدأ سبحانه وتعالى بنفسه وثنى بالملائكة وثلث بأهل العلم؛ ففي هذه الآية دليل على فضل العلم وشرف العلماء وفضلهم؛ فإنه لو كان أحد أشرف من العلماء لقرنهم الله باسمه واسم ملائكته كما قرن اسم العلماء، ولو كان شيء أشرف من العلم لأمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يسأله المزيد منه كما أمر أن يستزيده من العلم. وقال رسول الله ﷺ: «**إن الملائكة لتضع أجنحتها رضًا لطالب العلم، وإن العالم ليستغفر له من في السماوات ومن في الأرض، والحيتان في جوف الماء، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا، ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر**»[٣]. فالملائكة تنظر إلى طالب العلم بعين البهاء والجلال فستشعر في أنفسها تعظيمه وتوقيره، وتفعل له نحو مما يُفعل مع الأنبياء لأن العلماء ورثتهم، وأي منصب يزيد على منصب من تشتغل ملائكة السماوات والأرض والسمك في البحر بالاستغفار له؟!. وطالب العلم بين الجهال بمنـــزلة

(١) سورة المجادلة، الآية: ١١.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٨.

(٣) صحيح سنن أبي داود، رقم: ٣٠٩٦.

الحي بين الأموات لأنهم لا يفهمون ولا يعقلون كالأموات إن هم إلا كالأنعام. وإن أجر طالب العلم وثوابه من جنس ثواب النبيين وإن اختلف المقدار لأنه وارثهم وخليفتهم. قال ابن عباس: خُيِّر سليمان عليه السلام بين العلم والمال والملك فاختار العلم فأعطي المال والملك معه.

وإذا كان طالب العلم سواء كان العلم الشرعي الديني أو أحد العلوم الدنيوية المباحة حريص على النجاح في اكتساب العلم والاستفادة منه فيما يعود عليه بالنفع في دنياه وآخرته فلا بد له من الالتزام والعمل بالشروط والآداب المطلوبة منه في هذا المجال حتى يتحقق ما يصبو إليه ويكون له الأجر في ذلك فضلاً من الله ونعمة فوق ما سوف ينتفعه من علمه من المنافع الدنيوية.

القصد بالعلم وجه الله تعالى:

إن أول وأهم شروط النجاح في طلب العلم أن يُقصد به وجه الله تعالى مثل ما هو مطلوب في كل عبادة، وأن يكون قصده في الحال تحلية باطنه وتجميله بالفضيلة، وفي المآل القرب من الله سبحانه والترقي إلى جوار الملأ الأعلى من الملائكة والمقربين؛ فإذا قصد به ذلك كتب الله له الأجر والثواب في كل خطوة يمشيها في طلب العلم؛ قال رسول الله ﷺ: «**من سلك طريقًا يطلب فيه علمًا، سلك الله به طريقًا من طرق الجنة**»[1]. حتى الدراسة والعلم الدنيوي المباح إذا قصد به وجه الله فإن له به أجرًا ونفعًا ورفعة لا محالة؛ كأن يتعلم الطب ليداوي المسلمين ويكفيهم عن الحاجة إلى الأطباء غير المسلمين، أو يتعلم السياسة لتطبيق الشريعة الإسلامية وإقامة دولة الإسلام.. وهكذا بالنسبة لكل علم من العلوم

(١) صحيح سنن أبي داود، رقم: ٣٠٩٦.

الأخرى المباحة والمفيدة للبشرية؛ قال الله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾[١].

أما إذا قصد بطلب العلم غير وجه الله تعالى مثل أن يقصد به الرياسة والمال والجاه ومماراة السفهاء ومباهاة الأقران فعاقبة ذلك سيئة جدًا وتعد فشلاً ذريعًا؛ وأي فشل أعظم من أن يكون نصيبه الحرمان من الجنة وإدخاله النار؟!؛ فقد قال رسول الله ﷺ: «**من تعلم علمًا مما يُبتَغى به وجه الله عزَّ وجلَّ، لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضًا من الدنيا لم يجد عَرْف الجنة يوم القيامة**» يعني -ريحها-[٢]، وقال ﷺ: «**من طلب العلم ليجاري به العلماء، أو ليماري به السفهاء، ويصرف به وجوه الناس إليه أدخله الله النار**»[٣]. وهذا يشمل من يتعلم الطب أو الهندسة أو السياسة أو غير ذلك من العلوم ليتباهى بذلك ويتعالى على الناس ويتطاول عليهم.

تطهير النفس:

إن الصلاة التي هي من أعمال البدن لا تصح إلا بتطهير البدن عن الأحداث والأخباث بواسطة الغسل والوضوء؛ وكذلك العلم الذي هو من أعمال الباطن لا يصح عمارة القلب به إلا بعد طهارته عن الأخلاق الخبيثة والأوصاف النجسة، فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾[٤]، فالمشرك قد يكون نظيف البدن

---

(١) سورة الزلزلة، الآيتان: ٧-٨.

(٢) صحيح سنن أبي داود، رقم: ٣١١٢.

(٣) صحيح سنن الترمذي، رقم: ٢١٣٨.

(٤) سورة التوبة، الآية: ٢٨.

والثياب، حسن الهيئة والشكل، ومع ذلك فهو نجس أي باطنه ملطخ بالخبائث، فنجاسة الباطن عبارة عما يُجتنب ويطلب البعد منه من الأخلاق الرديئة والأوصاف الذميمة مثل الغضب والشهوة والحقد والحسد والكبر والعجب وغير ذلك من النجاسات التي تعيق أو تمنع عمارة القلب بالعلم.

وكذلك على المتعلم أن يجتنب المعاصي حتى يستفيد مما يتعلمه من حيث كونه عملاً لله تعالى إذا قصد به التقرب إلى الله عزَّ وجلَّ، فالمعاصي تنكت في القلب نكتًا سوداء إلى أن يعلوه الران فلا يستفيد من علم ولا يثبت فيه صلاح، ويضعف فهمه وحفظه؛ قال رسول الله ﷺ: «**إن العبد إذا أخطأ خطيئة نُكِتَت في قلبه نُكتة سوداء، فإذا هو نزع واستغفر وتاب سُقِل قلبه، وإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه، وهو الران الذي ذكر الله:** ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[1]»[2]، وعن علي بن خشرم قال: سمعت وكيعًا يقول: (استعينوا على الحفظ بترك المعصية)وقد كان وكيع بن الجراح رحمه الله آية من آيات الله في الحفظ حتى قال فياض بن زهير: ما رأينا بيد وكيع كتابًا قط، كان يقرأ كتبه من حفظه.

التواضع وعدم التكبر:

قال عمر: تفقهوا قبل أن تسودوا. قال أبو عبد الله (البخاري): وبعد أن تسودوا. وقد تعلم أصحاب النبي ﷺ في كبر سنهم.

فقد تكون السيادة والمناصب سببًا في الانصراف عن التعلم، لأن الرئيس قد يمنعه الكبر والاحتشام أن يجلس مجلس المتعلمين، ولهذا قال مالك عن عيب القضاء:

---

(١) سورة المطففين، الآية: ١٤.

(٢) صحيح سنن الترمذي، رقم: ٢٦٥٤.

إن القاضي إذا عزل لا يرجع إلى مجلسه الذي كان يتعلم فيه. وقال الشافعي: إذا تصدر الحدث فاته علم كثير. قال أبو عبيد: معناه تفقهوا وأنتم صغار، قبل أن تصيروا سادة فتمنعكم الأنفة عن الأخذ عمن هو دونكم فتبقوا جهالاً.

ولهذا كان على الإنسان أن يستغل صغره وشبابه في اكتساب العلم قبل أن يتبوأ منصبًا من المناصب التي يمكن أن تكون سببًا في منعه من طلب العلم وثني الركب عند العلماء والمعلمين.

فمن شروط النجاح في اكتساب العلم وآدابه أن لا يتكبر على العلم ولا على المعلم، ولا يتأمر على معلم، بل يلقي إليه زمام أمره ويذعن لنصيحته إذعان المريض الجاهل للطبيب المشفق الحاذق. وينبغي أن يتواضع لمعلمه ويطلب الثواب والشرف بخدمته. قال الشعبي: صلى زيد بن ثابت على جنازة فقربت إليه بغلته ليركبها فجاء ابن عباس فأخذ بركابه فقال زيد: خل عنه يا ابن عم رسول الله ﷺ، فقال ابن عباس: هكذا نفعل بالعلماء والكبراء، فقبَّل زيد بن ثابت يده وقال: هكذا نفعل بأهل بيت نبينا صلى الله عليه وسلم. فلا ينال العلم إلا بالتواضع وإلقاء السمع؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[1].

وهذه بعض الآداب التي ينبغي على المتعلم أن يأخذها في اعتباره ويعمل بها تواضعًا للعلم والمعلم؛ قال علي رضي الله عنه: إن من حق العالم أن لا تكثر عليه بالسؤال ولا تعنته في الجواب، ولا تلح عليه إذا كسل ولا تأخذ بثوبه إذا نهض، ولا تفشي له سرًا، ولا تغتابن أحدًا عنده، ولا تطلبن عثرته، وإن زل قبلت

(١) سورة ق، الآية: ٣٧.

معذرته، وعليك أن توقره وتعظمه لله تعالى ما دام يحفظ أمر الله تعالى، وإن كانت له حاجة سبقت القوم إلى خدمته.

ومن موانع التعلم التي ينبغي للمتعلم أن يجتنبها أيضًا: الحياء. قال مجاهد: لا يتعلم العلم مستحي ولا مستكبر. وقالت عائشة: نعم النساء نساء الأنصار، لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين. عن أم سلمة قالت: جاءت أم سُلَيم إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، إن الله لا يستحي من الحق، فهل على المرأة من غُسل إذا احتلمت؟ قال النبي ﷺ: «**إذا رأت الماء**». فغطت أم سلمة -تعني وجهها- وقالت: يا رسول الله، وتحتلم المرأة؟ قال: «**نعم، تربت يمينك، فبم يشبهها ولدها؟**»[1]. فالحياء من الإيمان، وهو الشرعي الذي يقع على وجه الإجلال والاحترام للأكابر، وهو محمود. وأما ما يقع سببًا لترك أمر شرعي فهو مذموم، وليس هو بحياء شرعي، وإنما هو ضعف ومهانة. فعلى المتعلم أن يترك العجز والتكبر لما يؤثر كل منهما من النقص في التعليم.

العلم قبل القول والعمل:

لا بد لمن يريد النجاح في التعلم أن يعلم بأن العلم يكون قبل القول والعمل لقول الله تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾[2] فبدأ بالعلم ثم العمل؛ وأعظم الأشياء رتبة في حق الآدمي السعادة الأبدية وأفضل الأشياء ما هو وسيلة إليها ولن يتوصل إليها إلا بالعلم والعمل، ولا يتوصل إلى العمل إلا بالعلم بكيفية العمل. فأصل السعادة في الدنيا والآخرة هو العلم فهو إذًا أفضل الأعمال.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب العلم، باب الحياء في العلم.

(٢) سورة محمد، الآية: ١٩.

التدرج بالعلم:

إن العلوم مرتبة ترتيبًا ضروريًا وبعضها طريق إلى بعض، وهذا ما نشهده من ترتيب المراحل الدراسية والصفوف ابتداء من الصف الأول الابتدائي وما بعده حتى المرحلة الجامعية؛ وهكذا يكون أي فن من فنون العلم ومن جملتها العلوم الشرعية، فعلى طالب العلم الشرعي أن يراعي الترتيب ويبتدئ بالأهم فالأهم، والموفق من راعى ذلك الترتيب والتدريج.

العمل بالعلم:

إن أحد أهم وسائل النجاح في اكتساب العلم هو العمل بما يتعلمه الإنسان لكي ينتفع به في دنياه وآخرته؛ وقد كان رسول الله ﷺ نفسه يتعوذ من العلم الذي لا ينفع ويدعو الله تعالى بأن ينفعه بما يعلمه ربه، قال ﷺ: «**اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع** »[1] وقال ﷺ: «**اللهم انفعني بما علمتني، وعلمني ما ينفعني وزدني علمًا**»[2].

عن الحسن؛ قال: إن كان الرجل ليصيب الباب من العلم فيعمل به فيكون خيرًا له من الدنيا وما فيها لو كانت له فجعلها في الآخرة. قال الحسن: كان الرجل إذا طلب العلم لم يلبث أن يرى ذلك في بصره وتخشعه ولسانه ويده وصلته وزهده.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الذكر، باب الأدعية.

(٢) صحيح سنن الترمذي، رقم: ٢٨٤٥.

وقد قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[١]؛ قيل في تفسيرها: إن الذين يعلمون هم الذين ينتفعون بعلمهم ويعملون به، فأما من لم ينتفع بعلمه و لم يعمل به فهو بمنـــزلة من لم يعلم.

قال علي رضي الله عنه: يا حملة العلم اعملوا به فإنما العالم من عمل بما علم ووافق علمه عمله، وسيكون أقوام يحملون العلم لا يجاوز تراقيهم، يخالف عملهم علمهم، وتخالف سريرتهم علانيتهم، يجلسون حلقًا فيباهي بعضهم بعضًا، حتى إن الرجل ليغضب على جليسه أن يجلس إلى غيره ويدعه، أولئك لا تصعد أعمالهم في مجالسهم تلك إلى الله.

فيجب على المعلم أن يكون عاملاً بعلمه فلا يكذب قوله فعله؛ فإذا خالف العمل العلم منع الرشد، وكل من أكل أو شرب شيئًا وقال للناس لا تأكلوه ولا تشربوه فإنه سم مهلك سخر الناس به واتهموه وزاد حرصهم على ما نهوا عنه فيقولون: لولا أنه طيب ولذيذ لما كان يستأثر به؛ ولذلك قيل في المعنى:

لا تنه عن خُلق وتأتي مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

وقال الله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾[٢]؛ ولذلك كان وزر العالم في معاصيه أكثر من وزر الجاهل، إذ يزل بزلته ناس كثيرون ويقتدون به، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها.

قال أبو الدرداء: (لا تكون عالمًا حتى تكون متعلمًا، ولا تكون بالعلم عالمًا

(١) سورة الزمر، الآية: ٩.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٤٤.

حتى تكون به عاملاً). قال أبو حاتم: العاقل لا يشتغل في طلب العلم إلا وقصده العمل به، لأن من سعى فيه لغير ما وصفنا ازداد فخرًا وتجبرًا وللعمل تركًا وتضييعًا، فيكون فساده في المتأسين به فيه أكثر من فساده في نفسه. وعن مالك بن دينار قال: إذا طلب الرجل العلم ليعمل به سرَّه علمه، وإذا طلب العلم لغير أن يعمل به زاده علمه فخرًا.